

حياة عاصفة

ما عرفت باطناً ظلمه ظاهره، مثل باطن نجيب الرئيس، كانت طائفة من الناس يجدون في جانبه خشونة وفي عريكته شدة، ولكنهم لم يعلموا أن وراء هذا كله قلباً مثل قلب الطفل لا أثر فيه لشيء من الخبث والمصانعة، كان رحمه الله يثور ولا ثورة البحر الزاخر، ثم لا يلبث أن يهدأ ولا هدوء النسيم والذين هم على هذا الشكل من الطبائع يحبون حباً لا نكاد نرى وراءه بغضاً ويغضون بغضاً لا نكاد نرى وراءه حباً، وما كنت لأعرف هذا كله لولا الثلاثون السنة التي قضيتها في صحبته، وإني لأذكر هذه السنين المديدة، وأتلفت ما طوته من ضياء وظلمة ومن ابتسام وعبوس، ومن شباب واكتهال فيغلب عليّ ألم لا أجد إلى الافصاح عنه سبيلاً، ولئن شعرت بشيء من الألم في ذكرى هذا الماضي لأنه جزء من حياتي، من قلبي وروحي فإني لأشعر ببعض اللذة في إحياء هذا الماضي، على ذكر نجيب الرئيس، والحياة كلها لذة وألم.

لقد صحبته أكثر من ثلاثين سنة، أخلصت له وأخلص لي، صحبته في ميسوره، في خشونته ولينه، في شبابه واكتهاله، وقد تخلل هذه الصحبة يسير من الفتور مرة أو مرتين، ولكنه كان كريم

الجانب، فقد محا هذا الفتور حتى لا يبقى له أثر إنه كان يقول إنه لا يستطيع أن يعيش بلا صداقتي.

من أجل هذه الصداقة الوثيقة أدركتني الحيرة في هذا المقال، فقد ازدحمت عليّ الأفكار فلم أدر كيف أنتهي، لأن نجيب الريس لم يكن صحفياً مثل كل صحفي، وإنما كان نسيج وحده، يكتب غيره فيغمس قلمه في المحيرة ويلقي أفكاره على الورقة، ويكتب نجيب الريس فيغمس قلمه في قلبه وي طرح هذا القلب على الورقة، فلم نجد في مقالاته شبحاً جامداً لا لحم فيه ولا دم، وإنما كنا نجد فيها روحاً هائجة مائجة، كنا نجد في مقالاته تدفق الحس والتهاب الشعور وأجيج العاطفة، وهذا ما حبيها إلى النفوس وجعل لها قيمة في الأذهان، وجعل الناس يتحدثون عنها بعد مضي الوقت على كتابتها، فالمقال، الذي كان يكتبه كان يصادف هوى في النفوس فهو ينطق عن بأس الناس ورجائهم، عن حزنهم وفرحهم، عن لذتهم وألمهم، وويل الذين كانوا يقعون في قلم نجيب الريس فكانوا يمشون وعيونهم مفضوضة، وينامون وقلوبهم مضطربة، إنه لا يكتب إلا إذا كانت الفكرة الوطنية محتمرة في ذهنه، تعيش في هذا الذهن كما يعيش صاحبها في روحه وتتغذى بحسه وشعوره وعاطفته كما يتغذى بنخبه ومائه فلا يقذف بها إلا إذا شبت من روحه ورويت من قلبه، ولهذا كانت تدخل الأرواح وتنفذ إلى التلويح.

كان القارئ يجد في مقالاته في بعض الأحيان شيئاً من فخر صاحبها واستكباره ولكن هذا الفخر لم يكن عبثاً، وإذا كنت لا أريد الإسراف في التعبير فإني أقتصر على قولي إن نجيب الريس كان ربيب السجون من أجل فكرته ولهذا كان إذا ثار على أهل الرجعة يثور ثورة الأعاصير وإذا أثار على المستعمرين يثور ثورة البراكين، فكانت مقالاته في هذا الميدان أعاصير تعصف في اضعاف السطور وبراكين تلتهب في ثنايا الألفاظ.

كان رحمه الله جزءاً من هذا الماضي الذي أثقلته المصائب وألحت عليه الشدائد، شهد نجيب الريس نكبة الوطن وظلمته فكان إذا صور هذه النكبة ووصف هذه الظلمة يصل تصويره ووصفه إلى أعماق القلوب لأن الناس في الماضي كانوا إلى جنب الفكرة الوطنية التي يعرب عنها نجيب الريس، وويل للذين كانوا يخرجون على هذه الفكرة فقد كانوا يذوقون من قلم نجيب الريس ما لا يذوقونه من نار ملتبهة.

وهب نجيب الريس لوطنه وإخوانه ولفكرته كل ما رزقه الله، وهب قلماً ناره مسعرة، وقلباً وداعته مثل وداعة الطفل فكان يذوب في الدفاع عن وطنه وعن إخوانه وعن حزبه وعن فكرته وكان يفنى في هذا الدفاع وأظن أن أحق الناس بالبكاء عليه بعد سنة مضت على وفاته إنما هم إخوانه في الفكر لأنه كان لسانهم الناطق، ولم ينطق بعد لسانه لسان وكان قلبهم الخافق ولم يخفق بعد

قلبه قلب، فذهب نجيب الريس وذهبت بذهابه أشياء كثيرة.. إلا أنه لم يذهب رحمه الله إلا بعد أن أحب الحياة حباً جمياً، أحب نعيمها وكرمها وسرورها ونوادرها، وأدبها وفكرها حتى أفنى هذا الحب جسمه وأذاب روحه، فكاد يتعب من صناعته التي مارسها ثلاثين سنة أو أكثر وأوشك أن يدركه الإعياء من طول نزاله وفرط نضاله ولما كتب الله له أن يستريح من العناء في ظلال دار لم يملك في الدنيا غيرها، وأن ينعم بجنينته التي فتنته توفاه الله ولكنه لم يمت إلا بعد أن خلف في جزء من تاريخ الوطن اسماً ضخماً. هذه عطسته!

شباط ١٩٥٣

ففي المرأة

تنظر إليه وهو جالس في ديوانه وراء مكتبه الفخم، أو في المقهى
ينفخ في نرجيلته فتراه في الحالين معتدل الجلسة هادئاً يجيب على
سؤال محدثه بإيجاز، ثم يستقبل من جديد أحلامه وتأملاته التي
يناجيها ويحادثها، وهو بين الناس وهو منفرد بأحلامه! ينظر في
الفضاء البعيد بعينين بعيدتي الغور، وقد ضم شفثيه فكاد يختفي
فمه الصغير الذي لا يتسع للكلمات الضخمة الزدحمة، فلا يخرج
منه إلا حديث هادئ رقيق متناسق يملك على المسامع لبه،
ونظرات الأستاذ جبيري وحديثه هما أظهر مظاهر شخصيته!

أما أدب الأستاذ فلا بد من التفريق فيه، بين الأدب الابداعي،
والأدب النقدي، وهذان اللونان قلما يجمعهما أديب، بل القاعدة
العامة أن الأديب الناقد كالعقاد أو طه مثلاً، لا يحسن تأليف القطع
التي تصور عاطفة من العواطف، أو تصف مشهداً من المشاهد،
على العكس من الأديب المبدع، فإنه قد لا يحسن الدراسة والنقد
والتحليل، فهل كان الأستاذ موفقاً في دراسته توفيقه في شعره أما
أنا فأرى - بعد استثناء نظرية الأدب ألهيه؟ - أن الأستاذ كان في
دراسته مجدداً في الأدب، وإن لهذا اللون من الدراسة الذي شرع به

اثراً بعيد المدى في آدابنا، التي ينقصها الدراسة والتحليل، وإن الأستاذ قوي الثقة بنجاحه في هذا الأدب النقدي (أي تأريخ الأدب) ولذلك أقدم على اختيار البحري موضوعاً للسنة الثالثة من الكلية مع أنه يعلم حق العلم أن المرحلة الأولى من حياة البحري الذي تمثل بيئته الأولى وطفولته والدور التي تكونت فيه شخصيته - كل ذلك مفقود، ولكن الأستاذ أقدم على دراسة البحري رغماً عن ذلك، ورغماً عن أنه لم يجرأ واحداً من نقادنا - في مصر أو غيرها - على دراسته إلى الآن!

فالأستاذ اذن زعيم المدرسة الأدبية الجديدة، وأدبه النقدي سيكون منه فتح في الأدب العربي عظيم، لأنه سينشئ مذهباً جديداً للدراسة والتحليل، غير أننا نأخذ على الأستاذ أنه لم يكون لنفسه مذهباً خاصاً في النقد يتبعه في دراسته كالمذاهب التي كونها لأنفسهم كبار نقاد فرنسا، ونرى للأستاذ عذراً أن أدبنا لا يزال إلى الآن أدباً تقليدياً؟

فأنت ترى أن الأستاذ قد وفق في أدبه النقدي إلى مدى بعيد، فهل كان موفقاً في أدبه الابداعي؟

هذا مما لا يشك فيه أحد! وقد عرفنا الأستاذ شاعراً مبدعاً قبل أن نعرفه دارساً وناقداً، ولإعتقادنا أنه قلما ينجح الأديب المبدع في التحليل شككنا طويلاً يوم بدأ يؤرخ الأدب في نجاحه حتى لمسنا هذا النجاح وليس الأستاذ من أكبر شعرائنا فحسب، بل هو

أعمقهم إحساساً، وأصقلهم لفظاً، وليأخذ القارئ قصيدته في رثاء الحسين وليقارنها بغيرها، إنه إذن يراها، خيرها في صقل ألفاظها، وسبك جملها، وفي إحساس صاحبها بالحادث الذي ينظم فيه، وليست مجموعة ألفاظ في الرثاء والمدح تصلح لكل ميت، وقد سألته عن الظروف التي نظمها فيها، والذكريات التي كانت تجيش بها نفسه فأخبرني أن أول بيت له قاله فيها:

رجعت طرفي إلى الماضي فروعني يوم بجأق فتاك باهليها

وكان ذلك الحادث الذي ذكره أنه كان في القدس يوم بلغه نبأ إعدام الشهداء، وكان وقع الخبر إيماءً عليه فبكى، وراح يتمثل مصرع هؤلاء الكرام وفيهم أصدقائه ومعارفه، وإذا بالموسيقى التركية تعزف نشيد الظفر تحت النزل الذي كان فيه؟

هذه هي الذكرى المريرة التي استعادها الأستاذ يوم عمد إلى نظم قصيدته في رثاء الحسين، فكان منها فكرة القصيدة، وكان منها ظهور شخصية الأستاذ واضحة في قصيدته، وعمق إحساسه بالحادث، وقد كاد ينساه لولا تهاويل هذه الذكريات التي يناجيها الأستاذ أبداً، فيستعيد بها هذا الماضي المترع بالآلام والآمال:

أكاد أنسى على الأيام روعته لولا تهاويل من نكرى أناجيها

ولست الآن في مجال شرح هذه القصيدة وتحليلها، بل عرضت لها ليرى القارئ أن الأستاذ جبيري مجدد في شعره كتجديده في دراسته، وإن كان أثر هذا التجديد في الدراسة أعظم وأوضح!

والأستاذ أديب بفطرتة ولكن وزارة المعارف كادت تستأثر به، وأعمالها التي يقوم بكثير منها تشغله عن الأدب، ولو هو انفق عنها لاستطاع اختصار هذه السنين التي تلزمه الآن، لتكون المدرسة الأدبية الجديدة تكويناً صحيحاً، لا سيما وأن الأستاذ لا يريد أن يدافع عن مدرسته بسلاح الرد والجدل، ولا بسلاح الهجاء الذي انقضى عهده، وذهب منذ ذهب ابن الرومي ودعبل كما يقولون، بل بسلاح العمل فهو يعمل ويقول للناس هذا عملي فاعلموا أحسن منه...

١٩٢٠

رياض العابد خلق، وعقل

سمعت وأنا في دكان فتياناً من اهل القرية جاوزوا التعليم الابتدائي ودخلوا في التعليم الثانوي يذكرون مرشحاً في قضائهم ويقولون: على أي شيء يعتمدون في ترشيحه، أعلى سيرته الطاهرة، أم على سيرة أهله أم على شهاداته وعلمه.

لم أهتم بهذا المرشح ولا بخصومه وإنما الذي اهتمت به في مثل هذه الأحاديث إنما هو ما يسمونه الوعي العام، فإذا كان فتيان من القرى، من الفلاحين أخذوا يدركون أن النيابة تحتاج إلى سيرة طاهرة وإلى شهادات، أي إلى خلق وعلم، فمعنى هذا أن الناس شرعوا يدركون أن النائب لا ينبغي له أن يكون في المجلس تاجراً يتوخى الربح، ولا جاهلاً لا يفهم جوهر المسائل التي يتوقف عليها صلاح البلاد وفسادها.

كتب أحد أصدقائي من مدة مقالاً في صحيفته ذكر فيه أن الأزمة التي قاستها البلاد في الحكم كانت أزمة أخلاق، فليسمح لي بأن أضيف إلى كلامه أن هذه الأزمة إنما هي أزمة فهم في الوقت نفسه، إن مجلسنا يحتاج إلى نواب على خلق عظيم، وعلى فهم ثاقب، فالأخلاق من دون فهم قد يجوز أن يلعب بها نائب من

شياطين النواب، والافهام من دون خلق قد يجوز أن يجعل أصحابها الوطن صنيعة يستغلونها.

فإذا كان مدار الأمر في النيابة على هاتين الصفتين: العلم والخلق فإنني أرى أن البيانات التي كثرت في هذه الأيام أصبحت موضوع سخرية في المجالس وقد يجوز أن يكون بين أصحابها جماعة لا مطعن عليهم ولكن البيانات لا تقدم ولا تؤخر، وإنما التي تقدم وتؤخر إنما هي عقول أصحابها وأخلاقهم.

وإذا كان المجال لا يتسع للخوض في الكلام على كل المرشحين سواء أصدرت بيانات عنهم أم لم تصدر، فإنني لا أرى بدأً من أن أعلن شهادتي بأحدهم وهو الأستاذ رياض العابد.

إنني أعرفه من زمن غير قريب فقد بلوت كثيراً من ظواهره وبواطنه، وإذا كانت النيابة تستلزم ثاقباً فأنا أشهد له بهذا الفهم فإذا عرض على المجلس أمر فيه صلاح البلاد أو فسادها فإنه يدرك هذا الأمر الإدراك كله، فهو من هذه الناحية صاحب عقل راجح وإذا كانت النيابة تستوجب خلقاً قوياً فإنني واثق بأنه لا يجعل البلاد جزءاً من منفعه وإنما يجعل نفسه جزءاً من منافع البلاد، وبعبارة أوضح إنه يذوب في مصلحة الوطن وسمعته واستقلاله وليست شخصيته في هذا المعنى رخوة فإنه حريص عليها، وقد سمعت أحد أصدقائه يقترح عليه أن يدخل في قائمة فلان.. فكان جوابه إنني لا أريد أن أكون آلة في يد أحد ولا أريد أن يكون عليّ

لأحد فضل، فأنا قد مهدت للنيابة بنفسي فإما أن أنجح بفضل هذا التمهد أو لا..

والصحيح أنه مهد للنيابة بنفسه من سنين، فقد خدم كثيراً من الناس وعرف قيمة الصداقة وأصبحت للناس به صلة شديدة وإذا خدم إخوانه فإنه لم يخدمهم في الباطل وإنما خدمهم في الحق وإنني أعتقد أقوى الاعتقاد أنه إذا دخل مجلس النواب بعد أيام قريبة فإنه سيحافظ في هذا المجلس على سمعته، سيحافظ على عقله الراجح فلا يصرف هذا العقل في أمور يكون فيها خراب البلاد وسيحافظ على خلقه فلا يجر الوطن لمنافعه وإنما سيذوب بعقله وخلقته في سبيل هذا الوطن.

بلودان ٢٠ أيلول ١٩٥٤
الأيام

مقدمة

نعمت ساعة بقراءة هذه الرباعيات، وقد تختلف آثار القراءة في النفس باختلاف الحالات التي تكون فيها هذه النفس، فقد تكون هذه الآثار بالغة وقد تكون ضعيفة، وهذا كله يرجع إلى حالة القارئ في خلال القراءة.

قد تغلب على الإنسان عقدة من العقد النفسية في حالة من الحالات فيرى في قراءة بعض الشعر أو بعض النثر حلاً لهذه العقدة أو ما يساعد على هذا الحل، ولو قرأ هذا الشعر أو هذا النثر وهو سالم من كل عقدة، خالص من كل ارتباك لكان نظره فيها يختلف عن نظره وهو في ظلمة عقده.

نعمت ساعة من الزمن بقراءة هذه الرباعيات فتركت في نفسي أثراً لا تتركه لو كنت صافي النفس هادئ البال مجرداً من كل اضطراب بعيداً عن كل ارتباك. ولقد آثرت أن أكتب هذه السطور وأنا في الحالة التي وصفتها حتى يظهر عليها الطبع وحتى يبعد عنها كل تكلف وسوء علي بعد هذا أكنت مخطئاً في الذي كتبت أم كنت مصيباً.

ما هي النعمة الغالبة على الرباعيات؟ إنا إذا قلبنا النظر فيها لا نجد إلا ألفاظ الخمر والكرمة والعناقيد والأكواب والخمارات وما شابه هذه اللغة ومفرداتها، فنحن نعيش في الرباعيات في خمارة من الخمارات، أو في حديقة من الحدائق بين رائحة الخمر وعرف الأزهار فلا يطلع علينا فيها إلا الربيع الطلق الذي يكاد يتكلم، ولا نجالس فيها إلا السكارى الذين لا يكادون يصحون من سكرهم، هذا هو الأفق الذي يتقلب في أعطافه قارئ الرباعيات. ولماذا هذه الأكواب وهذه الخمارات لأن كل شيء في هذه الحياة زائل، كل شيء زائل ما خلا الكرمه وعصيرها. المهم في الحياة إنما هو الشيء الجديد فما ينبغي للإنسان أن يهتم بالكرم وما ينبغي له أن يبالي بالحرب ولا أن يلبي الدعوة البهاء، فالراح وحدها هي كل شيء في هذه الدنيا فهي اللذة وهي الجمال. رغيف من الخبز وكأس من الخمر وديوان من الشعر هذه هي الحياة كلها.

فلسفة واقعة لا فلسفة مبنية على الأوهام والأحلام. فلسفة واقعة لأن البخلاء والمسرفين إنما يصيرون إلى مصير واحد ولا عودة لهم من هذا المصير. فلسفة قائمة على السرور والفرح، على الأوتار والنغم والشراب. فما هي الحياة وما هي قيمتها؟ بل ما هي الفلسفة وما هي قيمتها؟

«أفنى الفلاسفة أعمارهم في التنقيب عن أسرار الكون
فصرعتهم هذه الأسرار وذهبت بأقوالهم وحكمهم

ثم جاء ملك الموت فاستل ألسنتهم
وفغر القبر فاه وابتلعهم في أحشائه الدامسة.
ما هي هذه الحياة؟ ما قيمتها ما قيمة فلسفتها؟
هذه هي الفلسفة وهذا هو منتهاها. أفلم يصدق أبو الطيب لما
قال:

يموت راعي الضأن في جهله مية جالينوس في طبه
أين الحقيقة في هذه الحياة؟ إنهم يتناقشون وإنهم يتناظرون ثم
يخرجون بعد طول مناقشاتهم ومناظراتهم من الباب الذي دخلوا
منه.

لماذا خلق الإنسان؟ من أين جاء؟ إلى أين يذهب؟ هذه حقائق
في نظر الرباعيات مجهولة، والحقيقة الواحدة المعروفة هي الشرب
فاشرب وتمتع من الحياة، غداً الموت! غداً التراب!
ولكن قلب صاحب الرباعيات عامر بالإيمان فهو يعتمد على
الله وحده، يعتمد على مغفرته، إن الله خلق الإنسان فهو الذي
يغفر له ذنوبه وخطاياها، هذه فلسفة الرباعيات على وجه مختصر،
الضعام والعنب والخمور والقبر تحت ظلال العناقيد والدفن بين
أوراق الكروم، هذه هي كلها عناصر هذه الفلسفة.

صاحب الرباعيات ثائر على كل شيء في هذا الكون، ثائر على
أنظمه، ثائر على شرائعه ولكن ثورته بناءة لا هدامة إنه يريد أن

يهدم كل شيء في هذا الكون لينبئه على صورة جديدة، صورة صادرة عن القلب وحده.

هذه خلاصة هذه الرباعيات التي نعمت بقراءتها ساعة من الزمن، إنها لم تشوه تفكيري ولم تعكر قلبي، فأنا لما قرأتها كنت في حالة أستريح فيها إلى مثل هذا الشعر فلم أفكر في (باسكال) ولم أفكر في (الجاحظ) لم أفكر في باسكال الذي كان يؤمن بتسلسل البشرية واطراد أثار عقولها وحكمها وتجاربها وزيادة كل جيل منها في الآثار التي خلفها الجيل قبله ولم أفكر في الجاحظ الذي كان يقول:

«لولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها وخلدت من عجيب حكمتها ودونت من أنواع سيرها حتى شاهدنا بها ما غاب عنا وفتحنا بها كل مستغلف كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لقد خس حظنا من الحكمة ولضعف سببنا إلى المعرفة.

لما قرأت هذه الرباعيات لم أفكر في أقوال هذا الرجل العظيم ولا أقوال باسكال وإنما فكرت في الوقت الذي أعيش فيه أو نعيش فيه، فكرت في هذه الحياة القائمة في شرق الأرض وغربها، في تنازع البشر وتنافسهم في اختراع كل ما يفني الإنسان وحضارته، فكرت في تكالب الإنسان على المادة وفي اهتمامه بالمال وجمعه، وفي زهده في كل شيء روحاني، وخرجت من تفكيري هذا

بنتيجة واحدة: ألم يكن صاحب الرباعيات على حق في رباعياته؟
وقد يقول قائل أهذه هي هذه الحياة! أفلا تكون الحياة إلا الكأس
والطاس وإلا العنقود والكرم وإلا الخمارة والشرب! إذا قال قائل
مثل هذا القول فالحق بيده وإذا أجابه مجيب فقال له: أفلا تكون
الحياة إلا التناحر والتنازع والتنافس في أبواب الشرور! إذا أجابه
مجيب بمثل هذا القول فأحق بيده أيضاً.

فلننعم برباعيات الخيام إلى أن ينجلي الحق كل الانجلاء ونعلم
أين مكانه.

ولنشكر للسيد نوبل عبد الأحد الذي كلف نفسه نقل هذه
الرباعيات من اللغة الإنكليزية فلم يظهر في نقله أثر تعقيد ولا أثر
تكلف وإنما هي أفكار منشورة صافية سهلة يدركها الذهن لأول
وهلة دون شيء من الجهد.

الوطنية الصامتة

من العذاب الأليم، وأنت في يوم تحتاج فيه إلى التفاف الأهواء والتأليف بين القلوب أن تطلق كلمة «الوطنيين» على جماعة، فتخص بها قوماً ولا تعم آخرين، فكأنك لا تعلم أن الجماعات تنقاد إليك من نواحي عواطفها لا من نواحي عقولها؛ فلو ضربت الناس في الصميم من عواطفهم، وثلمتهم في اللب من مرواتهم، لانفضوا من حولك ونفضوا أيديهم منك؛ وأي ضرب أشد إجماعاً من أن تخص «بالوطنية» جمهوراً من الناس وتستثني جمهوراً آخرين قد اشتركوا في هذه الوطنية على تباين طبقاتهم ومداركهم ومجهوداتهم؛ أي غمز أشد إيلاماً من أن تسبغ برد الوطنية على طائفة من القوم وتنزع هذا البرد عن طوائف آخرين لهم في «الوطنية» مثل ما لأمثالهم؛ وعليهم فيها مثل ما عليهم، أفلا تجد أنك إذا جعلت «الوطنية» سلعة من السلع يتجر بها التاجرون، مرة يطفون ومرة ينقصون، انشأت لهذه الكلمة الشريفة ضعة في العقول، فلا يصونها الناس بعد أن بالغوا في تبجيلها وتعظيمها؛ ماذا تقول للذين لا تشملهم كلمة «الوطنيين» إذا كان بينهم من باع روحه في سبيل «الوطنية» فأدرع الليل وهرته الشمس وأقرسه

البرد، وهو اليوم لا يملك شروى نقير؛ ماذا نقول لهم إذا كان فيهم من المأت عليه الأرض فشربت دمه فلا تعرف له قبراً، فمتى كانت الوطنية وقفاً على قوم دون قوم، متى كانت الوطنية ديناً خاصاً لا يجوز أن يدخل الناس فيه أفواجاً، أم متى كانت الوطنية مورداً محمي الجوانب ممنوع النواحي، لا يزدحم عليه المزدحمون، ولا يصدر عنه الصادرون، ولعمري لقد حارت العقول، ودهشت الخواطر، فما هي الوطن التي يدعيها قوم دون آخرين؟ فإذا كانت سرّاً من الأسرار، فلماذا لا يظهر هذا السر، حتى تدركه العيون فتستضيء بضياءه؛ فما هي الوطنية وما هو مصدرها وموردها؟ وما هو جوهرها وعرضها؟ أم ما هي أوائلها وخواتيمها، أفتليق بجماعة ولا تليق بآخرين، أفتصلح لنفوس دون نفوس، أفتخلق لرجال دون رجال، ماذا تقول لهؤلاء الذين مهدت لهم سبيلاً أن تعرف الوطنية على هذا الوجه.

إن شئت أن تكون وطنياً فلا تعترف بكذا.. أو قل فليسقط كذا.. وما هو إلا رد النفس حتى يقبض عليك القابضون، وإذا أنت في بقعة من الأرض غير بقعتك فلا يأتي عليك إلا حين من الدهر حتى ترجع إلى عقر دارك وأنت الزعيم الجليل، وأنت الوطني الكبير، وأنت رمز الإخلاص، ومحض الوفاء، والحاصل أنت من قریش في الجماهير، هذا هو «تعريف الوطنية» الذي يجري على بعض الألسن إنه لتعريف قاس شديد لا يجب العاقل أن يسمعه،

ولكن الذي فتح باب هذا التعريف، وجعله يستفيض في الطبقات هو أفسى وأشد، إنه لتعريف ظالم، ولكن الذي وطأ السبيل إليه أظلم، إنه لتعرف لا يخلو من شيء من الهزء، ولكن الذي كان السبب فيه أهزأ بالناس وأسخر، ليست الوطنية أن تستعلي وتستكبر، وليست الوطنية أن تقتحم الناس عينك، فكأنك من أفق غير أفق البشر، أم كأنك من أسماء لا تطاؤها سماء، ليست الوطنية أن تنشر فضائلك؛ إنني لا أرى أبلغ من الوطنية الصامته ولا أرى أحمد منها عواقب؛ وأحسن خواتيم قد يكون جمود دمك في بعض الشدايد أنطق من فيضه، وقد يكون سكوتك في بعض المقامات أبلغ من كلامك وكذا الوطنية الصامته الهادئة فإنها أبلغ من الوطنية المهذارة المجمعجة، ما هذه الرياضات الجليلة، وما هذه الزعامات الكبيرة، شبر من التراب في ظلال ميسلون أجل منها وأكبر، شبر من هذا التراب أنطق من كل وطنية هذاءة. اللهم ارحم نفوساً ذهبت بين سمع الأرض وبصرها. فضرت أصحابها لينتفع غيرها. وقتلت أهلها ليعيش من بعدها. فاشترت موتها بجماعة المتكالبين على حطام الدنيا. المتناحرين على سفاسف أمورها.

فتى العرب ١٩٢٨

سليم جنبرت هل يزاحمونه على النيابة؟ إن امارتكم بكر فأذيقوا الناس حلاوتها

أحفظ عبارة ولكني لا أذكر من قالها ولا في أي حال قيلت: إن امارتكم بكر، فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها. خطر بيالي هذا الكلام بعد أن سلمت من يومين على سليم بك جنبرت، فقد كان فندق أمية غاصاً بعليّة القوم، وفي مقدمتهم رجال الكتلة الوطنية، خرجت من عند سليم بك فبلغني أن بعض الناس يفكرون في مزاحمته على النيابة فاستفظعت الأمر، واستفظعه غيري، إنني لا أريد أن أذكر الأسباب التي من أجلها ينظرون في حرمانه شرف النيابة، ولكن الذي أريد أن أوضحه في المقال قليل من خصائص سليم بك جنبرت، فقد عرفته أكثر مما يعرفه غيري، خالطته في وزارة المعارف بضعة أشهر كان في خلالها لا يكتم عني أمراً من الأمور.

اشترك سليم بك جنبرت في اسوأ وزارة وأشأمها، ولكنه كان كالضياء الساطع في الظلام الحالك، كان إلى جنبه وزير صاحب

عمامة ولكنني لست أدري هل كانت هذه العمامة برجاً من الهدى أم من غيره، وكان إلى جنبه وزير عجوز ولكنني لست أدري هل كانت شيبته شيبة الحمد، وكان إلى جنبه وزير صاحب المعاهدة المشؤمة، عرفه أحد النواب في المجلس تعريفاً لا مزيد عليه.

لم يستطع واحد من هؤلاء الوزراء أن يغلب على سليم بك جنبرت، فيرده عن طيب عنصره واستقامة مذهبه، فلم يؤثر فيه ضلال الضالين وفساد الفاسدين.

من ذاك اليوم عظمت منزلته في عيني ثم وقفت على سيرته وأخلاقه وعلى معاملته فازدادت هذه المنزلة عظمة، كان سليم بك جنبرت مولعاً بفعل الخير فإذا فعل الخير اطمأن باله يومه كله.

إنه على شيخوخته الجليلة كان لا يطيق أن يغلب عليه مستشار في أمر من الأمور فكثيراً ما خالف المستشار فيقول له: أنا الوزير وأنت المستشار ومعنى هذا أن كلمة الوزير فوق كل كلام وإذا ضايقه المستشار قطب في وجهه وقال له: إنني أعلم بأحوال البلاد منك على أن الوزارة التي أشترك فيها كانت لا شيء إلى جنب المستشارين، وهذا ما يزيد في عظمة الرجل

قد تكون هذه الأمور بأجمعها يسيرة إذا قيست بأمر منقطع النظر وهو رد المعاهدة، فما ظهرت عظمة سليم جنبرت إلا في رده تلك المعاهدة المشؤمة.

الناس كلهم يعرفون أنه ردها ولكنهم لا يعرفون حالته النفسية في تلك الأيام.

إن سليم جنبرت نصراني كاثوليكي ورع محب لفرنسا، لا يعرف الهوادة في نصرانيتها وفي محبته للفرنسيين وهذا ما زاد في تعظيمه في عيني يوم رد المعاهدة، ولما شعر الفرنسيون بتردده في التوقيع في المعاهدة، استعانوا عليه بأكبر مقام ديني لما يعرفون من تقواه ومن انقياده إلى رجال الدين، فلم تنفع فيه وساطة أحد، ولما قطع الفرنسيون أملهم من ناحية المقامات الدينية جاءه المنذوب بنفسه ولاطفه وجامله وكان يقول له: ألك خدمة نخدمها، ألك أمر ننفذه، فكان سليم بك يقول له: لا، إني رجل قد تعبت!

هكذا كان موقف سليم بك جنبرت، كان يقول لي: إني أعيش في بلاد أكثر أهلها مسلمون، فأنا محل محبتهم، ومنزل مودتهم، فلا أريد أن تكون محبتهم لأهل بيتي بعد موتي أقل من محبتهم لي، لا أريد أن يمر ولدي في حلب وهو غاض الطرف طام الرأس، ومن إفراطه في محبة ولده استشاره في أمر المعاهدة فقال له:

ردها ولا تندم إننا لا نريد أن نجلب لنا عداوة البلاد.

ولكن سليم بك جنبرت لا يسكته إلا إطمئنان الضمير، فإذا مات هذا الضمير في غيره، فإنه فيه خالد لا يموت. ذهب ذات صباح إلى الكنيسة وسجد لله تعالى وقال بينه وبين ربه: يا رب! إني مقدم على عمل، فإذا كان خيراً فخذ بيدي فيه، وإذا كان شراً فجنبني إياه، ولكن العمل كان خيراً كمل الخير فخرج من الكنيسة وملء قلبه الإيمان والطمأنينة فقال لي:

الآن عزمتم فتوكلت فاكتب لي كتاب الإستقالة.

حاولت أن أكتب له في الكتاب أسباب استقالته فمنعني عن ذلك وقال: إنني لا أحب الشهرة ولا أميل إلى الضجة فاكتب أنني تعب في حاجة إلى الراحة ثم كان من أمره ما كان.

كان رد سليم بك جنبرت للمعاهدة مقدمة للقضاء عليها في مجلس النواب، فإن معاهدة يردّها وزير نصراني كاثوليكي ورع محب لفرنسة لا يجرأ مجلس أكثر رجاله مسلمون على الرضى بها والموافقة عليها، فإذا ردت المعاهدة المشؤمة في مجلس النواب فلا يخلو سليم بك جنبرت من أثر بليغ في ردّها.

لا أظن أن وزيراً آخر من طرازه يقف موقفه هذا وخاصة إن كان في وزارة مثل الوزارة التي اشترك فيها، أفيكون جزاء سليم بك جنبرت بعد هذا كله أن يزاحموه على النيابة ويحرموه شرفها.

إذا كان هذا الأمر جداً ولم يكن هزلاً فلا أدري كيف تكون فاتحة عهدنا الوطني الجديد ولا أدري كيف تكون قلوب الناس بعد هذه الفاتحة، إننا إذا لم نشرع من اليوم في مكافأة المحسن على إحسانه ومعاقبة المسيء على إساءته، انقطع الإحسان في الدولة وشاعت الإساءة، وبانقطاع الإحسان تنقطع الفضيلة، وبشيوع الإساءة تشيع الرذيلة.

إن امارتكم بكر فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها، أما هذه الحلاوة فهي مكافأة المخلص على إخلاصه حتى يتم ببيان

وطننا الجديد على أيدي المخلصين، وأما هذه المرارة فإنها السكوت
عن جنایات الماضي ووضع المحسن والمسيء في درجة واحدة
وحينئذ لا أدري كيف تكون عواقب هذه السياسة.

محاورة في مقامات اللصوص السارقون وأوصافهم

من أحاديث الأستاذ الكبير شفيق بك جبري في حلقة المحشوقة
بالعباسية قال:

حدثني أحد الظرفاء قال:

بعد أن روي بعض الأشخاص السياسية وشيع، وأحس بمجيء
أجله فيها فامتقع وسوست له نفسه أن يلهو بشيء يفرج به غمه،
ويكشف كربه، فلم يجد أصلح له من التفقه في اللغة، والسبب في
تفضيله اللغة على غيرها أن له عدواً مبيناً، ولم يستطع في ماضيه أن
يزاحمه في ميدان الخطابة فأحب أن يعكف على اللغة حتى يستعد
لعدوه في المستقبل البعيد جداً فأخذ في هذا الأمر رأي أحد
أصدقائه وسأله أن يدلّه على كتاب يمكنه من التبحر في دقائق اللغة
وجلائلها فأشار عليه بأن يطالع فقه اللغة وسر العربية للإمام
الثعالبي، فاقتنى نسخة منه وبادر إلى النظر فيها وأول ما عرض له
من هذا الكتاب فصل اختلج كل بدنه منه لشدة بغضه لما يشتمل
عليه وعنوانه:

فصل في تفصيل أحوال السارق وأوصافه وأول هذا الفصل:
إذا كان السارق يسرق المتاع من الإحراز فهو سارق، فإذا كان
يقطع على القوافل فهو لص وقرضوب.
فإذا كان يسرق الإبل فهو خارب
فإذا كان يسرق الغنم فهو أحمص إلى آخر أحوال السارقين
وأوصافهم.

فقرأ الفصل كله حتى أتى عليه فرسخ في ذهنه من أول مرة
لفرط كرهه للسارقين وأوصافهم فحفظ ثلاث عشرة صفحة
وطرب منها وشهق وزهق ثم ذهب إلى صديقه وقال له:
لقد برزت عليك في فقه اللغة وسر العربية، فهل تعرف من
أحوال السارقين وأوصافهم أكثر مما أعرف؟ إنني أعرف ثلاث
عشرة صفة فاذا ذكر لي ثلاث صفات إذا كنت أعلم مني بهذا
الباب!

فضحك صديقه وقال له: إنك لا تزال تلميذاً في هذه الخصائص
وقد أرشدتك إلى فقه اللغة لأنك مبتدئ وأين المبتدئ من المنتهي،
فيسرت لك الأمر ولم أصعبه، إنك لم تقرأ مقامات البديع الهمذان؛
فإذا كنت تعرف ثلاث عشرة صفة للسارقين فإني أعرف اثنتين
وسبعين صفة، فبهت من هذا الكلام لأنه كان يعتقد أنه قد أصبح
أعلم أهل الأرض بهذه الصفات فأحب أن يمتحن صديقه فقال له
اذكر لي شيئاً من مقامات البديع.

فقال حرسه الله وأبقاه وهو يحفظ المقامة الرصافية كلها.

أتعرف أصحاب الفصوص من اللصوص!

وأهل الكف والقف ومن يعمل بألطف ومن يحتال في الصف
ومن يخنق بالدف ومن يكمن بالرّف لينهال على اللّف.

أم تعرف من يبذل بالمسح ومن يأخذ بالمزح، ومن يسرق
بالنصح ومن يدعو إلى الصلح؟

أم تعرف من نوم بالبنج أو احتال بنيرنج؟..

أم تعرف أصحاب الطربزين كأعوان الدواوين ومن دب بأنين
على رسم المجانين إلى آخر المقال.

وأخذ يفسر له أصحاب كل صفة على حده، فأهل القف الذين
يختلسون المال بين أصابعهم، وأهل الصف الذين يسرقون من
صفوف المصلين منتهزين انشغالهم في الصلاة وهلم جرا.

فلما فرغ من هذا التفسير اقر – بالتقصير وحلف أن يدرس
صفات كل لص حتى لا يفوته أقل نص في صنعه البلص، وإنهما
لكذلك اذ دخل عليهما عابر سبيل فجأة فقصا عليه قصتهما فقال
لهما:

بارك الله. بارك الله.. كل منكما فارس هذا الميدان.

يا رحيم يا رحمان...

نساءً ونجيب

- ما هو السبب في ركود الحركة الأدبية في سوريا؟
- ما هي العوامل التي ترونها كفيلة بتنشيط هذه الحركة؟
- ما هي النصائح التي توجهونها للأدباء الناشئين؟

ج ١

ومن قال لك أن الحياة الأدبية في سورية راكدة! أفلا تقرأ هذه المقالات وهذه القصائد التي تنشر في الجرائد والمجلات، أفلا تطلع على هذه المباحث الأدبية المختلفة: الرمزية.. الوجودية.. فإذا قابلنا بين نشاط هذه الحركة في أيامنا وبين نشاطها من ثلاثين سنة وجدنا فرقاً عظيماً فكل شاب يخطر على باله الشعر يقذف به وكل شاب يعرض له أمر في الحياة يصبه في قصة، فما أكثر القصائد وما أكثر القصص وما أكثر المقالات!

فنحن لا نشكو ركود الحركة الأدبية ولكننا نشكو هيجانها، إننا لا نشكو قلتها ولكننا نشكو كثرتها ولكن هذه الحركة في هيجانها وفي كثرتها لا نظام لها ولا غاية، هذا ما نشكوه إلى أين يذهب

أدبنا، لا ندري، ما هي غايته لا ندري، إنه لا يزال فوضى، مرّة
ناخذ أفكارنا عن الفرنسيين، ومرّة عن الإنكليز وحيناً عن الألمان
وحيناً عن الروس وربما لجأنا إلى الأميركيين، لا بأس بهذه
الاقتباسات كلها، ولكن ما فائدتها إذا لم نطبع أدبنا بطابع خاص،
ما هو لونا، ما هي غايتنا، ما هو مذهبنا ما هو مزاجنا، ما هو
اتجاهنا في الحياة، هذا مالا يزال غامضاً في أدبنا، إننا لا نزال
كريشة في مهبّ الريح!

ج ٢

إنك تسألني عن العوامل التي تنشط الحركة الأدبية في بلادنا.

نسأل القراء ونقول لهم لماذا لا تقرأون،

فيقولون لنا: وما هي كتبنا التي هي جديدة بالقراءة، ونسأل
الكتاب ونقول لهم: لماذا لا تكتبون، فيقولون لنا: وأين القراء
الذين يطالعون ما نكتبه لهم! فنحن حائرون بين جمود القراء وبين
جمود الكتاب. فمن الذي بيده الحق.

قديماً كان أدبنا يعيش في ظلال العمال والأمراء والملوك
والخلفاء، فكان أكثر الأدباء ينتجون ولا يشغلون أفكارهم بمتاعب
الحياة، أمّا الآن فقد اختلف الأمر، فإن تكاليف الحياة أصبحت
ثقيلة فلا بدّ للأديب من مورد رزق له ثابت.

وإذا كان الأديب في أوربة أو أميركة يستطيع أن يعيش بأدبه
وأن يصبح غنياً فإن الأديب في بلادنا لا يقدر أن يقتصر على

الأدب وحده، وليس عندنا دور نشر تساعد على ترويج الأدب فتشتري تأليف الكاتب بأثمان مقبولة، فقد يكتب أحدنا كتاباً أو يدوّن خواطر رحلة فلا يجد من يشتري آثاره حتى يفكر في تأليف جديد أو في رحلة جديدة.

الأدب يأخذ عن الحياة ويعطيها فمرة توجهه الحياة ومرة يوجه الحياة، ولكنه سواء أكان تأثيره في الحياة أم كان تأثير الحياة فيه لا بدّ له من دور نشر غنية مستقيمة، ولست أدري لماذا تؤلف شركات خماسية لكل صنف، ولا تؤلف شركات رباعية أو ثلاثية للأدب!

فإذا لم يجد الأديب من يروّج له بضاعته فإنها إلى الخمول أميل، أمّا قولنا: من فضلك اكتب لنا مقالة، من فضلك هيء لنا قصيدة لعدد ممتاز والأجر والثواب على الله! فهذا يبعد الأدباء عن التأليف البارِع ويساعد على ترويج التأليف غير البارِع!

فانظر الآن لقد شغلتنى بسؤالك ساعة فأضعت وقتي فماذا الذي جنيته أنا من هذه السؤالات والجوابات! فثق بأنني لا أعود بعد الآن إلى ضياع وقتي بمثل هذه السؤالات وبمثل هذه الجوابات!.

ج ٣

اعفني من النصائح، فإن أساتذة الأدب في القديم والحديث ملأوا الدنيا نصائح فما على الأدباء الناشئين إلا الرجوع إلى

إرشاداتهم، الأدب، سواء أكان نثراً أم كان شعراً إنه ابن الصبر الطويل، ولا بدّ للكاتب أو للشاعر من الاشتغال عشرين سنة حتى يكون شيئاً في عالم الأدب، أمّا هؤلاء الذين يسرعون في نشر خواطرهم دون أن يكون لهم زاد أدبي مخمّر فهم السبب في كساد الأدب، لم يكتب أحدنا إلاّ بعد أن قلب نظره في مؤلفات المتقدمين والمحدثين ربع قرن أو أكثر لأن سبك العبارة ليس بالشيء السهل.

هذه نصائحي!